البيت معهد حر

البيت فى الاقطار المتمدنة فى أوربا وأمريكا معهد حر لاتسوده سلطة الأب الاتوقراطية. ينشأ فيه الأولاد فى مجتمع راق يختلطون بالضيوف ويجدون فى هذا الاختلاط تنويراً وتدريبا على المعاملة والايناس والحديث والكلمة العذبة ، والعبارة المهذبة . كما تجد الزوجة فيه مجالا لترقية شخصيتها بما تتحمل من تبعات نحو زوجها وأولادها .

وكلمتا البيت والعائلة تندمجان فى معناهما . والبيت الأمثل هو الذى تسود المساواة فيه أعضاء العائلة ليس بين الزوج وزوجته فقط بل بينهما وبين الأولاد

وإذا كان هؤلاء فى سن صغيرة يحتاجون إلى الإرشاد فانه يجب أن يكون خاليا من الاستبداد والتسلط . لأننا يجب أن ننشد مبادىء الثورة الكبرى ، أى الثورة الفرنسية ، فى البيت قبل أن ننشدها فى المجتمع . أى يجب أن نعمم مبادىء الحرية والأخاء والمساواة بين أعضاء البيت قبل أن نعممها فى المجتمع .

ويجب أن يتمرن أعضاء العائلة على ممارسة النظام الديمقراطى فى البيت قبل أن يمارسوه فى المجتمع .

واعظم ما يكوّن الشخصية فى الرجال والنساء هو الحرية. اى الحرية التى تلقى على عواتقهم تبعات وواجبات يتحملونها. فيؤدى تحملها إلى نموهم . وإذا انعدمت الحرية من البيت استحال إلى سجن . وبعيد بل محال أن تتكون الشخصية فى السجن حيث لا مجال للحرية أى للاختيار والتفكير واحساس التبعة والواجب، هذا الاحســـاس الذى ينشط الذهن والجسم ويحمل على التفكير والعمل .

وفن الحياة هو فى النهاية فن تكوين الشخصية . إذ ليس شىء أجمل فى هذا الكون من الشخصية اليانعة التى عاش صاحبها فى حرية الفكر والعمل وفى تحمل التبعات والواجبات حتى تدرب وتمهر وصارت له فلسفة تعين اتجاهاته وغاياته . فهو يسير فى الدنيا وهو على نور وهدى .

ونحن فى مصر ، للعبء الباهظ الذى نحمله من تقاليدنا الماضية ، نتوجس من الحرية ونخشى الاختلاط ونضع القيود والحدود هنا وهناك أمام الأطفال والفتيات والسيدات . فلا تجد شخصياتنا التربية التى تؤدى الى انضاجها واينائها. فينشأ الشاب وهو فى خوف من الدنيا لا يقتحم فى تفكيره أو عمله . وتنشأ الفتاة وهى محجمة متراجعة تلتزم الصمت والسكون والاستحياء

والتراجع كأنما هذه خطة حياتها. فلا تحيي الحياة المليئة ولا تزدان برشاقة الايماءة ولباقة الكلمة ولذلك تخسر كثيراً من جمالها الروحي ، هذا الجمال الذى لا يعوض منه جمال الجسم الذى يبدو راكداً جامداً . وهو كذلك بالمقارنة إلى الفتاة الاوربية التى تتذبذب حيويتها طربا فى شخصية مغنطيسية تواجه الدنيا فى شجاعة وانطلاق واستطلاع فى حين تواجه فتاتنا المصرية دنياها فى تقلص وخوف من الاستطلاع . وذلك لأن الأولى عاشت فى حرية فى حين عاشت الثانية فى قيود التقاليد .

ولذلك يقتضينا فن الحياة أن نجعل الحرية تستفيض فى البيت . وإذا قضى الحظ أن يتزوج الشاب فتاة دونه فى الثقافة فيجب أن يدأب فى رفعها إلى مستواه وأن يجعل من وسطه الاجتماعى مايحملها على الارتقاء نعنى بذلك أن نختار من الضيوف والزائرين ، الذين يتبادل واياهم الزيارة ، أولئك الأحرار المتعلمين الذين يحضرونها الى أن تثقف عقلها وأن نتجه الاتجاهات التى تزيد البيت فنا وجمالا كما تزيد حياتها نضجاً وإيناعاً

وقد يتعب الشاب فى سنيه الأولى من الزواج وهو يوجه زوجته هذا التوجيه ولكنه يجد المكافأة بعد ذلك على هذا التعب فى سنوات عديدة من الهناء الذى تثمره مزاملة قائمة على المساواة الحقة فى الميزات والتأنقات الذهنية .

أما إذا أهمل تثقيفها فانه سرعان ما يجد الانفصال الروحى قائما بينه وبينها بحيث يعيشان وكأنهما جاران يشتركان فى مأوى.

وكما نخشى نحن حرية المرأة كذلك نخشى حرية الصبيان فنحرمهم مما لانحرم منه حتى الحيوانات التى يتمتع أطفالها بالطفولة والصبا فنرهقهم بالدرس فى الوقت الذى تصرخ فيه طبيعتهم بالرغبة فى اللعب والمرح. بل أحياناً ، وحين يزورنا ضيوف ، نحاول أن نمنعهم من الاختلاط بهم وبذلك نحرمهم من التربية الاجتماعية الحسنة التى يستعيضون منها تربية اجتماعية فاسدة باختلاطهم بزملاء لهم قد نشأوا فى بيئة غير حسنة .

وشبابنا فى مصر يجهلون أشياء كثيرة عن البيوت الاوربية والافرنكية . وهم يقرأون القصص أو يرون المسرحيات السينمائية التى تعرض شذوذات الحياة أكثر مما تعرض قواعدها فيتوهمون السوء والزيف فى حياة المتمدنين . ويلتمسون على استمساك بالحياة الشرقية التقليدية ويتعصبون لها . فينكرون الحرية على المرأة والأولاد ويمارسون معهم حياة الانكفاف والاحجام، تلك الحياة التى تجعلهم يعيشون فى نسك أو ما يقاربه، ويكرهون متع الحياة العائلية ويتوقونها .

أجل . إن شبابنا يجهلون ان الخادمة الاوربية تقتنى مكتبة

فى غرفتها لا تقل مجلداتهـا عن مائتى أو ثلاثمائة مجلد وهى تصر على أن تكون لها ساعات فراغ للقراءة والدرس . ويجهلون ان الضيافة لا تنقطع فى البيت الأوربى الراقى . وأن الأولاد يدعون أصدقاءهم إلى ولائم فى البيت فيجدون التشجيع من آبائهم على هذا النشاط الذى يكسبهم المرانة الاجتماعية والضيافة الراقية . وأن الاختلاط بين الجنسين لا ينقطع منذ الطفولة إلى الشيخوخة وهذا الاختلاط يدرب الفتى والفتاة على الرشاقة ويوجه الغرائز الجنسية وجهتها السوية ويمنع الشذوذات البشعة التى تفشو فى المجتمعات الانفصالية فى الأمم الشرقية . فالحيـاة هناك أملأ وأمتع والشخصية أتم وأينع .

يجب أن نعيش فى حاضرنا

نحن لا نعيش حياة واحدة لأن لنا حيوات مختلفة : حياة الطفولة ثم الصبا ثم الشباب ثم الكهولة ثم الشيخوخة . ولكل من هذه الحيوات أفراحها وأتراحها واختباراتها وليس من حق أحد ، كالوالدين أو المربين ، أن يحرمنا من إحدى هذه الحيوات. وإذا فاتتنا حياة الصبا بلا تمتع ، وإذا عوملنا فى أثنائها كما لو كنا شباناً ، فاننا عندئذ نكون بمثابة من لم يحي حياة معينة كان من حقه أن يحياها . إذ هى لن تعود .

ولكن هذا هو ما نرى فى عصرنا . فان كثيرا من الآباء يحرمون أبناءهم من صباهم ويكلفونهم واجبات الشباب إعداداً للمستقبل. كأن الحاضر لا قيمة له، وكأنه يجب أن يضحى به من أجل المستقبل، كما يضحى بالصبا من أجل الشباب . وكثيراً ما نرى صبياناً بين الثامنة والخامسة عشرة يقضون فراغهم بعد المدرسة فى الدراسة إما بضغط آبائهم وإما بترتيبات جهنمية حين يحضر المعلمون اليهم فى البيت ويقهرونهم على الدرس . مع أن هذه الفترة من العمر تنادى باللعب والمرح وبالتجارب التى يخترعها الصبي لفهم الدنيا. وليس من حقنا أن نحرمه منها .

وهنا نعود إلى القيمة البشرية والقيمة الاجتماعية . فان

الأولى تطالبنا بمعاملة الصبي باعتبـــار أنه صبي فقط يعيش ويستمتع بحاضره . لأن هذا هو حقه الطبيعي . ولكن القيم الاجتماعية تتغلب علينا فنفكر فى مستقبله . ولأننا نخشى هذا المستقبل ، للمباراة العامة التى نتوهم أنها تسوده ، نبالغ فى تفكيرنا إلى حد القلق فلا نفكر فى منطق وتعقل ولكن فى خوف وفزع . ونسرف فى تأكيد الدراسة وحرمان الصبي من صباه أى حرمانه من إحدى حيواته التى لن تعود اليه . ولو عقلنا لأحسسنا الإجرام فى هذا العمل .

وليس من شك فى أن نظام المباراة الذى نعيش فيه، والذى يسود مجتمعنا، يجعلنا جميعاً فى خوف دائم من المستقبل. ولذلك نكاد نقضى عمرنا كله فى التهيؤ لهذا المستقبل . وهذا الخوف يستحيل أحياناً إلى قلق نيوروزى أى ارهاق نفسى نعجز عن تحمله وهو يبدو فى خوف أو فزع . فان البخيل الذى يحرم نفسه من المتع الصغيرة وهو يجمع قرشاً على قرش إنما يفعل ذلك لمركبات نفسية هى فى حقيقتها أمراض يحتاج إلى المعالجة منها . وهو حين يسأل عن الأسباب التى تحمله على هذا البخل يجيب بأنه يخشى المستقبل ويتهيأ لليوم الأسود بالقرش الأبيض . مع أن من يتأمل صميم نفسه يعرف أنه لن يخرج هذا القرش

الأبيض المدخر مهما اشتدت الحلوكة فى هذا اليوم الاسود المنتظر . لأن الواقع أن البخل نشأ عنده من الخوف من المباراة العامة التى لا تجعل أحداً مطمئناً على مستقبله فأسرف فى التهيؤ لهذا المستقبل . واتجه الوجهة النفسية التشاؤمية حتى صار البخل عادة . وهذه العادة تجعله يعيش على هامش الحياة التى قد تطول ولكنها تطول هزيلة بلا عرض أو عمق . والعادة لثبوتها تحرمه من الترفيه عن نفسه مهما ساءت الاحوال .

ونحن جميعاً نحتقر البخل . ولكننا ننسى أننا حين نحرم الصبي من صباه إنما نتجه وجهة هذا البخيل فى الخوف من المستقبل . وننسى أننا حين نرصد من وقتنا أحسن ساعاته لاقتناء العقارات والاثراء إنما نتجه هذه الوجهة أيضا وإن كنا لا نبلغ درجة البخيل فى الحرمان .

وفن الحياة يقتضينا أن نعيش فى حاضرنا فنتمتع بمتع الطفولة فى طفولتنا . ومتع الصبا فى صبانا ومتع الشباب فى شبابنا . ولا نؤجل شيئاً من ذلك تهيؤاً للمستقبل . لأننا لسنا واثقين من هذا المستقبل ثقتنا بالحاضر . فاذا حرمنا الشاب من متع شبابه بدعوى أنه يستعد للمستقبل فاننا لا نثق بأنه سيعيش لى هذا المستقبل المنتظر .

ولسنا مع ذلك ننكر هذا المستقبل ونتعامى عنه . ولكننا نعتقد أن من يعيش فى حاضره إنما يعيش أيضاً لمستقبله . ونعنى المعيشة السليمة . فان هناك فرقاً بين اثنين يخافان المستقبل . أحدهما يبخل ويقتر ويبالغ فى الحرمان والآخر يؤمن بأداء قسط سنوى لاحدى شركات التأمين مثلا

وهناك أيضاً فرق بين تلميذ يدرس فى المدرسة ويلعب خارجها أو يستمتع بصباه أو شبابه ، وبين آخر يرهق بتكاليف مدرسية أخرى فى بيته، تراه قد حبس نفسه بعيداً عن والديه وأخوته وسهر الليالى

والرجل السوىّ الذى تتزن أعصابه يكتسب من حاضره بصيرة لمستقبله ويستطيع لذلك أن ينظر اليه مطمئناً فلا يجنح إلى التقتير ولا يهرول فى جهده لاقتناء المال

وإذا عشنا فى حاضرنا ومارسنا اهتماماته وهمومه، وتمتعنا بمتعه فاننا بهذا السلوك نفسه ، نجدنا قد استعددنا للمستقبل . فالرجل الذى تعود مثلا القراءة واقتناء الكتب ومداومة القراءة للجريدة والمجلة انما يتمتع بكل هذه الممارسات ولكنه زيادة على ذلك يتهيأ بها لشيخوخة يقظة بعيدة عن السأم والتبلد .

وكذلك الرجل الذى مارس عملا كاسباً وانتفع بالتأمينات

المألوفة يسير نحو المستقبل فى طمأنينة .

أما إذا كانت الأيام حبلى بمفاجآت ، كما رأينا فى الازمات الاقتصادية الماضية ، فان بصيرة العاقل وفزع المجنون وتقتير البخيل ، كل هذا يستوى أمام تلك المفاجآت . أى جميعنا عندئذ سواء . وعندئذ ينتقل الاهتمام بالمستقبل من يد الفرد إلى يد الدولة

ومن المألوف أن نجد شخصاً يكد متعباً مهموماً فى اقتناء الثروة وفى نفسه شوق إلى الاستمتاع فهو يحلم بالبيت الذى سوف يبنيه أو ببضعة الفدادين التى سوف يزرعها ويجد فيها الاتصال بالطبيعة . أو هو يحلم بالسياحة فى أوربا . وقد يحلم أيضاً باستمتاعات ثقافية مختلفة ويضع فى برنامجه شراء مكتبة تحوى آلاف المجلدات التى تنيره وتثقفه . ويفعل ذلك وهو فى الثلاثين أو فى الاربعين ويرصد كل وقته للجمع والاقتناء والاثراء

ومثل هذا يجب أن نقول له : أنت مخطىء . لأنك حين تصل إلى سن الستين تكون العادات التى مارستها كل يوم من حياتك الماضية قد رسخت فيك فلن تستطيع تغييرها .

ثم وأنت فى الستين سوف تكون لك أذواق تختلف عما لك الآن وأنت فى الثلاثين أو الاربعين

ولذلك يجب أن تعيش فى حاضرك وتبدأ الآن فى استمتاعاتك وتحقيق أحلامك . ولا تؤجل متعك إلى سنين قادمة ربما تموت أنت قبل بلوغها . أو ربما تموت كفاءتك للاستمتاع بها . اذ أن لكل سن متعها الخاصة . فمتع الشباب غير متع الكهولة ومتع الكهولة غير متع الشيخوخة . ومتع الصبا غير متع الشباب .

النمو والتطور

عندما نتأمل رجلا جامدا رجعياً وآخر متطورا ارتقائياً نجد أن لكل منهما اتجاها قد عين مزاجا خاصا . فالأول فى صميمه متشائم يخشى الدنيا ويتوقع الكوارث ولا ينتظر خيراً من أى تغيير . وهو لذلك متبلد يؤثر السكون على الحركة . فى حين أن الثانى ، ذلك المتطور الذى لا يبالى التغيير ، متفائل بالدنيا يؤمن بالارتقاء كأنه ديانته السياسية وهو يدعو إلى نهضة ما فى السياسة أو الاقتصاد أو إلى تغيير فى الأدب أو الاجتماع. ولذلك نستطيع ، فى معنى ما ، أن نعد الجمود والرجعية مرضين ينشآن من الخوف .

وقد يكون المرجع والأساس لهذا الخوف أن الرجعى قد أسيئت معاملته أيام طفولته فأهين وضرب أو عومل بالكراهة والقسوة حتى صار بعد ذلك يجد أن السلامة والطمأنينة لا تكونان إلا فى استبقاء حالته ، إذ هو على الدوام يتوقع أسوأ منها ، وفى تجنب أى تغيير إذ هو يوجس شراً مما هو فيه .

والجامد الرجعى لا يحيي الحياة الطبيعية . لأن النمو والتطور من سنن الطبيعة التى تشهد بهما الف مليون سنة من تاريخ

الأحياء . ومعنى هذا أنهما أصيلان فى أعماق سريرتنا وأننا لن نعيش المعيشة السوية ولن نقارب السعادة ، أو على الأقل السعادة السلبية ، إلا إذا كنا فى نمو وتطور لا ينقطعان طوال حياتنا .

بل أحيانا ، حين نتأمل أحلام اليقظة التى نستسلم اليها فى لذة ، نجد أننا نطلب التطور كما لو كان شهوة فى نفوسنا . أى أننا نحس اننا غير راضين عن حالتنا إذ ندأب فى التفكير فى تغييرها . وليس الإيمان بالمستقبل ، بل بالشجاعة والإقدام سوى إيمان بالنمو والتطور والارتقاء . وكذلك ليست المحافظة والجمود والرجعية سوى الجبن والخوف . وكلاهما يحملنا على الركود والتقلص .

والأمم « الشرقية » لفرط ما عانت من مظالم ملوكها وأمرائها وحاكميها يغلب عليها الجمود إذ هى على الدوام متشائمة بالمستقبل تخشاه وتتراجع عنه كأنها تريد أن تعيش فى الماضى . أما الأمم الأوربية فتكاد ترقص للمستقبل وهى ترضى بالتغيير والتطور وقد جعلت الارتقاء مذهباً

وليس من السداد هنا أن ننصح للقارىء أن يكون متفائلا وأن يتجنب التشاؤم . لأن هاتين الحالتين قد تكونتا فى الأغلب

منذ الطفولة أو لأن كوارث الحياة قد تراكمت فملأت القلب شكوكا وشبهات بشأن المستقبل . ولكن من السداد أن نبين أننا لن نستطيع ان نتطور ، أى نعيش وفق سنن الطبيعة ، ما لم نكن متفائلين . وعلى كل قارىء عندئذ ان يحلل تشاؤمه وخوفه وأن يعرف مرجعهما . وهو إذا هبط على هذا المرجع عاد إلى التفاؤل والشجاعة .

واوضح المظاهر للأرتقاء والتطور والنمو هو الثقافة . وصحيح ان هناك من يتجه ارتقاؤهم وجهة مالية أو اجتماعية او سياسية فيبرزون فى هذه الجهات ويجنون منها ثمرات السرور . ولكنها بالمقارنه إلى الثقافة تعد ثمرات زائلة متقلبة ليست لقيمتها ثبات القيم الثقافية .

ذلك أننا عند ما نرقى بالثقافة ارتقاء نفسياً ذاتياً لا يستطيع احد او ظرف ان ينتزعه منا . والنفس تتطور بالتغير الثقافى فتتجدد وكأنها تستعيد الصبا او الشباب وتهبط على عوالم جديدة لم يكن لها بها معرفة من قبل .

والذى نحب أن نثبته ونؤكده انه ما دمنا فى تطور ثقافى فإننا نتجنب السأم والجمود والتبلد فتمتلىء الدنيا حولنا مباهج فلا يكربنا اليأس بل نتحمل حتى الكوارث المرهقة .

وإذا اعتدنا الثقافة فإن الأغلب اننا نخرج منها بمذهب كفاحى للخير البشرى . وهذا المذهب يغذونا وينير بصيرتنا عن مغزى الحياة كما انه يوفر لنا اهتمامات لا تنقطع . وما دمنا فى هذه الاهتمامات فاننا لن نحس هذا السأم القاتل الذى يغمر حياة المنغمسين فى الملذات حين يأجمونها متبرمين منها عازفين عنها .

وفن الحياة هو ، فى معنى ما ، فن العيش فى سرور إن لم يكن فى سعادة . ولذلك يجب أن نوفر لأنفسنا احساسات السعادة بإيجاد وسائل الرفاهية الذهنية والمادية .

وعندما نعمد إلى دراسة ، نحس إحساساً عميقاً بلذة التطور . ولذلك نحتاج ، كى نوفرها ، إلى برامج ثقافية متواصلة تحملنا على مراحل الحياة وتكفل لنا شباب الذهن وتجدده .

وكلما تقدمنا فى السن ، وخاصة عندما نتجاوز الستين ، يتوانى نشاطنا وقد نتبلد أو نجمد . ولكن ، إذا كنا قد تعودنا الدراسة وجعلنا منها منهجاً للحياة ، فاننا ندخل فى دور الكهولة والشيخوخة ونحن مستبقين لشبابنا مبتهجين بالدنيا قد احتفظنا بكلمات اللغة اى بالأفكار . وقد كررنا هذا الكلام . ولكن مهما نكرره فاننا فى حاجة إلى تأكيده إذ ليس هناك ضمان

للشيخوخة السعيدة إلا مع الثقافة الدائمة التى تستبقى الذاكرة فى حيويتها القديمة .

وهناك ألوان من الارتقاء كثيرا ما نأجمه . فاننا عندما نندفع فى اقتناء المال ، او عندما نبذل جهودنا كى نحصل على مركز اجتماعى كنا نطمح اليه ، نجد ان الهدف الذى وصلنا اليه دون ما املنا وتمنينا من حيث قيمته فى جلب السرور إلى نفوسنا . إلا الثقافة فانها تملأنا غبطة ولذة اكبر مما كنا نحلم به

ولعل مرجع هذا ان آفاق الثقافة واسعة متشعبة ليست لها نهاية فى حين ان المركز الاجتماعى او المال نهاية . ولذلك لن نعرف السأم إذا جعلنا غايتنا من النشاط والنمو ثقافية .

الاتصال بالطبيعة

لا يسهل على أى انسان أن يتجرد من القيم الاجتماعية ، أوحتى يتسامح فى الكثير منها ، إلا بمجهود شاق يضنيه ويقيم من المجتمع ، الذى يرتضى هذه القيم ، خصما له . ولكن يجب أن نتنبه من وقت إلى آخر إلى هذه القيم الاجتماعية ، حتى لا ننساق فيها ذاهلين . وحتى لا ننسى اننا بشر قبل أن نكون مصريين أو فرنسيين أو عرباً . واتصالنا بالطبيعة جدير بأن يحدث لنا هذا الوجدان .

ذلك أن حياة الحضارة تغمرنا وتسومنا أوزانها وقيمها . فالنجاح فيها يقاس بالقدرة على اقتناء المال . والجمال فيها اثاث فاخر أو جواهر غالية أو أتومبيل مطهم أو رسم على جدران أونحو ذلك مما ننساق فيه فنتوهم اننا سادة نختارٌ ونقرر مع أن الواقع ، اننا فى الأكثر ، عبيد العرف الاجتماعى الذى يأبى علينا الاستقلال .

ومن وقت لآخر نرى أو نقرأ عن أولئك البشريين الثائرين على هذا العرف الاجتماعى . مثل تولستون الذى هجر المدن وعاش فى عزبته يصنع حذاءه بيديه . أو غاندى الذى نزع عن

جسمه ملابس الحضارة وقنع بشملة يبسطها على عاتقيه أو يأتزر بها . وهذا إلى قنوعه من الطعام باللبن والفواكة . أو ثورو الكاتب الأمريكى الذى ترك المدن وبنى لنفسه كوخاً لم يكلفه أكثر من ستة جنيهات عاش فيه سنتين إلى جنب الغابة حيث كان يحصل على طعامه من صيد السمك وصغار الحيوان والطير. وقد قال عن هجرته هذه فى الغابة وحياة الفطرة .

« إنى اردت أن أسوق الحياة وأحرجها فى زاوية كى أعرف هل هى شىء جليل أم حقير ؟ »

وبكلمة أخرى أراد ثورو أن يخلو إلى نفسه ويستمع الى همساتها بعيداً عن ضوضاء المدينة وضجيج الحضارة ، خاليا من تكاليفها الصغيرة والكبيرة كى يستكنه اسرارها ويصل الى أصولها ويتعرف الى الطبيعة ويقف على علاقته منها ومراسيه فيها.

وكلنا يحس فى أعماق القلب والمخ اننا فى حاجة الى مثل هذه التجربة . وان العمر لا يصح أن يقضى على هذا الكوكب وهو مبعثر بين هموم واهتمامات صناعية أى صنعتها لنا الحضارة.

ولذلك يجب على كل من ينشد الحياة الفنية أن ينظم هذه الحياة بحيث لا تنقطع عن الطبيعة وبحيث تبقى القيم والاوزان البشرية ماثلة فى ذهنه عالقة بقلبه يشتهيها ويتعبلها ويستمتع بها.

وهو عند ما يفعل ذلك ، وعند ما يألف الطبيعة ، سيحس انها أبى الطبيعة تحوى ألوانا من الجمال فى الشفق عند الغروب ، وفى بزوغ الشمس عقب سكينة الفجر ، وفى رهبة الجبل ، وبسطة الصحراء ، بل فى تنوع النبات والحيوان ، مما يجعله يحتقر الكثير مما تحملنا الحضارة على اقتنائه ونعتنى فى جمعه والتفاخر به

وليس من الضرورى أن نسلك سلوك ثورو فى الهجرة الى مكان قصىّ نعيش مستوحدين سنتين أو اكثر كى نصل الى جمال الطبيعة وكى نهتدى الى مراسينا منها. فان اللجوء الى الريف من وقت لآخر ، وقضاء أيام بل احياناً الساعات فيه ، يضىء بصيرتنا ويقرب ما بيننا وبين الطبيعة ويحملنا على التخلص من الزيادات والنوامى التى تنمو حولنا كما تنمو الأعشاب والطفيليات حول السفينة فتعطلها عن الملاحة . فان غاندى لم يخسر حين نزع ١٥ قطعة من الملابس الحضارية واكتفى بقطعة واحدة . اذ الواقع انه كسب . أو بكلمة اصح : هو كسب من حيث القيم البشرية وخسر من حيث القيم الاجتماعية .

واحيانا حين أقعد فى الريف وأتأمل القمر وهو يحيل كل شىء على الأرض الى خلق سحرى ، أو حين اتأمل الشفق فى رائعة جماله ، أو حين اخرج فى الفجر أنتظر بزوغ الشمس

والدنيا هادئة صابحة كأنها لم تخلق إلا منذ دقائق ، او اتأمل اسراب الغربان وهى عائدة الى عشاشها عند الغروب ، او اليمام وهو يغازل على استحياء وفى طمأنينة ، او حين اتأمل هذه الحرب الخفية السرية بين النبات والحيوان فى ديسة او خميلة على جدول ، أتعجب من انسان يرضى بقضاء دقيقة واحدة فيما يسميه قتل الوقت على القهوة بدلا من ان يجرى ساعياً لاهثاً الى الريف كى يختبر هذه الدنيا فى اعماقها وصميمها .

واتعجب من انسان ، او بالأخرى انسانة ، تعتقد الجمال فى عقد من اللؤلؤ او قلادة من الألماس مع ان جبلا من هذه الجواهر لا يساوى فى جماله جمال الشفق او القمر .

ويفشو الجهل بالطبيعة ، اى بالدنيا ، حتى نجد انسانا يعرف طائفة من المعارف المكروسكوبية عن الأدب او العلم . وهو يجهل هذه الدنيا العظيمة وطنه الأول . فلا يعرف روائعها من جماد ونبات وحيوان .

وقد جزأتنا الوطنية اجزاء على هذا الكوكب . حتى صرنا لانشتاق الى رؤية جبالنا الشامخة مثل هملايا او مساقطنا الرائعة مثل نياجرا . لأننا نحس كأن جبل هملايا هو ملك خاص بالهنود ونياجرا هو ملك خاص بالأمريكيين .

بل الواقع أننا لانشتاق الى رؤيتهما لأن القيم الإجتماعية قد تغلبت علينا . فنحن نهتم باقتناء البهارج « الجميلة » بدلا من الاهتمام بالاقتناء النفسى لجمال هذا الكوكب . وكثيرا ما ادخل البيوت التى تمتاز بحدائق فاجد اشجاراً اسأل اصحابها عن اسمائها فلا يعرفون . . . لأنهم انما غرسوها انسياقا وراء العرف وليس تقديراً لقيمة النبات او احساساً بان الشجر قريبنا نحن . وهم يعيشون فى وحدة وجودية ولذلك لايهتمون بالتعرف الى اسمه او اصله .

وأحيانا أجد من الحسن أن أرد بعض الذاهلين الى الوجدان واعيد اليهم القيم البشرية بان اسأل احدهم : هب انك اصبت بمرض قاتل ووثقت من الاطباء أنك لن تعيش على هذا الكوكب سوى عام واحد . ثم خيرت بين ان تقتنى الف اقة من الألماس واللؤلؤ ومئة قنطار من الذهب ، او تقضى هذا العام الباقى من عمرك على هذا الكوكب فى زيارات رائعة الى القطب الشمالى وجبال هملايا ومساقط نياجرا وغابات افريقيا ترى بواسق الشجر ووحوش الحيوان وتشترك فى صيد القيطس عند القطب الجنوبى وترى الفيلة فى غاباتها فى الهند . اجل . وفوق ذلك تعرف الشعوب البشرية فى الهند واليابان ونروج واستراليا ،

وترى الانسان البدائى والانسان المتوحش والانسان المتمدن. ومقدار التدمير الذى احدثه هذا الاخير بكنوز كوكبنا .

لو خيرت بين هذين لاخترت بلا شك أن تقضى عامك فى زيارة الارض التى عشت فيهـــا ماضى عمرك وأنت محبوس محجوز فى بقعة معينة تظن أنها كل شىء وتقضى سنيك فى اقتناء بهارج ليس لهـا غير القيمة الإجتماعية التى تعمينا عن الاستمتاع بكوكبنا

ولا بد أن البشر فى المستقبل سينفضون عن عواتقهم التكاليف الباهظة العديدة التى يتحملونها الآن من الحضارة ويفكروا فى القيم البشرية . وسوف يجدون فى الآلات المنتجة ، ل فى الطاقة الذرية ، ما يجعل العمل الإنتاجى سهلا لا يحتاج منا إلى قضاء الوقت أو الجهد العظيمين ، وعندئذ يعود هذا الكوكب وطن البشر جميعاً . وعندئذ تصير الجبال والبحيرات والغابات، بما تحفل به من حيوان ونبات ، كنوزاً يحتفظون بها ولا ينقطعون عن زيارتها

والى أن نصل الى هذه الحال يجب ان نذكر أنفسنا على الدوام بضرورة اتصالنا بالطبيعة ويجب أن نحتال بالتوفيق بين ضرورات العيش والمجتمع واللجوء الى الريف . ويجب

ان تكون لنا هوايات ريفية طبيعية . فان صيد السمك ينزعنا
احياناً يوماً كاملا من الوسط الحضارى الصناعى الى وسط
طبيعى . وكثير من المفكرين يحتاج الى مثل هذه الهواية التى
نختمر فيها الكامنة وقت السكينة عند شاطىء النهر ثم يؤدى
اختمارها الى تهيئة الوجدان للانتاج المثمر

اجل يجب ان نتنبه على الدوام الى القيم البشرية ، ولا
ننساق فى قيم اجتماعية تستعبدنا ، ويجب ان نذكر ان الطبيعة ،
اى الأرض والنهر والجبل والغابة والبحر والصحراء والنبات
والحيوان ، هى كنزنا الأول الذى يجب ان نقتنيه اقتناء نفسياً
ونتدرس جماله وتستمتع به وذلك بالإتصال الذى لا ينقطع به .

الاتجاه والرؤيا

الاتجاهات والميول والغايات هي عادات كامنة تكيف عواطفنا وتوجه نشاطنا وتثير اهتماماتنا . وكثير من النجاح أو الخيبة يعزى إلى الاتجاه والغاية . لأن النفس تبقى راكدة ليس لها اهتمام. فاذا تعينت لها غاية ، يهدف اليها النشاط ، نشطت . كذلك الاتجاه يعين الأسلوب الذى نعيش فيه .

اعتبر صبيا أو طالبا يتجه نحو الأولوية فى المدرسة وينصبها غاية . فهو يكد ويتعب ويثابر كى يحقق هذه الغاية . ويعود هذا الاتجاه أسلوبه فى الدراسة بحيث أنه يبتئس كثيراً إذا زحزحه آخر عن مركزه الأول . فهنا اتجاه قد صار عادة كامنة تكيف العاطفة وتوجه النشاط وتثير الاهتمام . وليس من الضرورى أن يكون هذا التلميذ أذكى من غيره من المتخلفين عنه . وإنما هو يمتاز منهم بالاتجاه والغاية . وامتيازه هذا عليهم عاطفى وليس ذكائيا . لأن الاتجاه يحرك العاطفة وهذه تحرك النشاط الجسمى أو الذهنى .

اعتبر كلبا جائعا ، وآخر شبعان . فالأول يتحرك بعاطفة الجوع ويمشى وأنفه للأرض يبحث عن الطعام . وهو فى هذه

الحركة الجسمية متحرك العاطفة بالجوع متحرك العقل بالتفتيش. وأنفه يرشد عقله كما ترشد عيوننا عقولنا . ولكن اعتبر الآخر الشبعان فانه قاعد راكد أو نائم .

فالعواطف هى المواطر التى تحركنا . والاتجاهات والميول والغايات إنما هى عواطفنا التى نتحرك بها إلى الدراسة والجد وغير ذلك . وهى كما تحرك أجسامنا تحرك أيضا أذهاننا ، فنتنبه بعد الغفلة وننشط بعد الفتور .

والتفاؤل والتشاؤم ، وكذلك الطموح والركود ، اتجاهات. ولكل منا خارطة روحية أو ذهنية أو نفسية يرتسم بها العالم ويحدد ما فيه من قيم وأوزان اجتماعية او بشرية . وبهذا جميعاً يتجه نحو غاية او يرى رؤيا ويتخذ أسلوبا . فالمتفائل يتحمس ويتحرك ويجد لذة العيش. والمتشائم يتبلد ويركد ويجد الحياة ماسخة لا يتطعمها . ومن هنا مثلا قيمة الدين عند المؤمن . فإنه يجد فيه الرؤيا كما يجد الأسلوب . فيكون الدين له بمثابة الصابورة التى تتزن بها حياته ولا تتقلقل إذا ضربتها الزعازع والكوارث .

والرؤيا هى ثمرة التفاؤل . لأن المتشائم لايرى رؤيا . فلا يمكن مثلا أن تكون اشتراكيا تؤمل المساواة والإخاء بين

البشر إلا إذا كنت متفائلا . والعكس صحيح . لأن الرجعى المحافظ يؤمن بأن الشر غالب على الطبيعة البشرية التى لا تتغير ولا يمكن معالجتها . فهو لذلك متشائم بلا رؤيا . ولذلك يكافح الأول . ويركد الثانى .

وقس على هذا . فان الرؤى والمثليات ، كلتاهما تكسبنا روح الكفاح وهذا الروح يحملنا على الدراسة والرقى . فنجد لذة الحياة فى الكفاح كما نرتقى به .

الكفاح ضد الاستعمار والامبيريالية ، والكفاح ضد التعصب الدينى واللونى ، والكفاح ضد المرض والجهل والفقر والظلم ، كل هذا تتحرك به عواطفنا وتنشط . بل كدت أقول : تذكى عقولنا . ونحن بهذه الأنواع من الكفاح لانخدم أمتنا فقط بل نخدم انفسنا بترقية شخصيتنا ونجعل حياتنا حافلة بشئون ومشكلات اجتماعية وبشرية تجعلنا نتعمق ونتوسع فى الحياة .

وربما كان أعظم الاتجاهات اتجاه الحب باعتباره أسلوبا للعيش . لأن الحب يزيد الفهم . أى اننا نفهم أكثر عندما نحب ونفهم أقل او أحيانا لانفهم عندما نكره . ألا ترى أن الأم تفهم الشىء الكثير من إيماءة طفلها أو أى طفل آخر إذا كانت تتجه وجهة الحب . . فى حين غيرها الجامد أو غير المبالى

أو الكاره ، لا يفهم شيئاً ؟ .

وهناك من يقول إن الحب يعمى . ولكن الحقيقة ان الحب يبصر ويفتق الذهن للفهم والمعرفة . ولكن الكراهة والحقد والبغض والنفور ، كل هذه تعمى وتغشى على عيوننا وعقولنا فلا نبصر ولا نفهم .

والرجل الذى يحب الحياة الفنية ، ويحب الانسان والطبيعة ، ويحب الثقافة ، يجد أنه بقدر السعة فى حبه ، يزداد فهمه وتعمقه ورغبته التى لا تنقطع فى الأستزادة من الفهم والدرس والاستطلاع . ثم هو بهذا الحب يجد الرؤيا التى يهدف اليها فى اصلاح منشود أو ظلم يرفع أو اختراع يحقق . فيعيش سعيداً بهذه الأفكار ويشع ضياء على كل ما يمسه كأن ذهنه مفصفر يضىء على ما حوله .

ومثل هذا الرجل يدين بدين مقدس . ولا عبرة بأنه يخالف التقاليد . لان الدين هو نقطة التبلور فى اختباراتنا وثقافتنا . والرجل الذى يختبر كثيراً ويدرس كثيرا ويتجه وجهة الحب لابد أن يصل إلى هذه النقطة وأن يرى رؤيا الدين . ومن هنا كفاحه وإنسانيته لأنه فى جميع كفاحه الماضى إنما كان يحاول أن يكون إنسانا إنسانيا وأن يحمل البشر على أن يكونو إنسانيين .

وإذا كان رجل التقاليد ينبزه بأنه ملحد أو كافر لانه يضل فى اشتباكاته الثقافية ، فان غيره من المتعمقين يعرف إيمانه ، هذا الإيمان الذى وصف به فولتير فى كفاحه للمتعصبين والمستبدين ازاء رجال التقاليد من كهنة رجال الدين المسيحى فى فرنسا . ونحن الآن نعرف أن الدين بل القداسة كانت فى قلب فولتير . وأن الكفر كان قلوب أولئك الكهنة .

وخلاصة القول إن فن الحياة يقتضينا أن تكون لنا اتجاهات وميول تنتهى إلى رؤيا . فنكسب منها المذهب البشرى بل الدين ونجهد ونخدم فى تفاؤل وحب ، نحب الإنسان والشرف والمجد والصحة والخير ونحب الحيوان والنبات والجبال والانهار والرسوم الفنية والمدن التاريخية . وبذلك لا نركد بل نبقى على نشاط دائم مكافحين محبين للخير كارهين للشر .

الحياة مغامرة

عندما نتأمل القصص السامية التى ألفها كتاب خالدون نجد أننا إنما نقيس هذا السمو بشيئين : أما بشخصية فذة تغمر القصة وتجعل من العيش اقتحاماً ، وتجد مرح الحياة فى المغامرة والدخول فى الغمر العباب دون القناعة بالشواطىء والمخاضات، وأما نجد، بدلا من هذه الشخصية ، مشكلة حيوية عظمى نصل فيها إلى الأعماق فنفهم أكثر ونعرف أكثر فى الحياة .

ومع إننا نقرأ كثيرا فانه قلما يخطر ببال أحدنا أن يعيش فى هذه الدنيا كما لو كان بطلا فى قصة سامية . وذلك بأن يكون هو نفسه شخصية فذة أو يكون قد اعتنق مشكلة من مشكلات البشر الحيوية فيطابق بينها وبين نفسه ويعيش لها . فهى هو وهو هى .

ولكن الواقع أن كثيرين منا ، على الرغم مما قلنا ، يطابقون بين حيواتهم وبين القصص التى يقرأون. فالشاب الذى ينكب على قراءة قصة ما إنما يطابق بين نفسه وبين هذه الغراميات المتأججة فى القصة . والفتاة التى تدمن الذهاب إلى الدور السينمائية إنما تطابق بين نفسها وبين فتيات الدرامة التى تشاهدها . وهى تعيش ، بجميع إحساساتها ، فيما ترى من اقتحامات هؤلاء الفتيات. ولكن ، وهذا هو المهم ، هذه القصص والدرامات ليست

سامية . ولذلك فأن المطابقة بين قارئها أو مشاهدها وبين ابطالها أو حوادثها ليست مما يرفع أى ليست مما يساعدنا على أن نجعل حياتنا سامية نعيشها فى فن وحذق وتأنق وجد .

ويجب أن نجعل حياتنا مغامرة . بل هى كذلك من أول ساعة نخرج فيها من الرحم إلى هذا العالم . فأن الموتى الذين لا يطيقون هذا الخروج كثيرون جداً . فأذا كانت بداية حياتنا مغامرة فيجب إلا يغيب عنا هذا الرمز ويجب أن نستبقى هذا الشعار سائر عمرنا . ويجب إلا ننسى أبداً أن الطمأنينة التى نتوخاها هى على الدوام جزئية ونسبية وظرفية . لأن الطمأنينة التامة هى الموت ،

ومن أجمل أوأحكم الكلمات التى خلفها لنا نيتشه قوله : كل مالا يقتلنى يقوينى . وأيضاً قوله : عش فى خطر . وذلك أن الحياة اختبارات فأذا واجهنا خطراً وخرجنا منه دون أن يقتلنا فقد كسبنا الأختبار وازددنا بذلك عرفانا بالدنيا وحكمة فى الحياة . وإذا عشنا فى خطر زال عنا الذهول الذى تتسم به العامة وصرنا فى يقظة وتنبه وذكاء وفهم . فتكون الدقائق عندنا بمثابة الساعات عند غيرنا . والساعات بمثابة الأيام .

والحياة القصيرة الحافلة بالمغامرات والاقتحامات خير من

حياة طويلة هزيلة يعيشها الإنسان فى ذهول، كأنه بلا وجدان. والمخترع والمكتشف كلاهما يعيش مغامراً لأنه يسير فى أرض مجهولة لا يعرف نهايتها. وهو فى هذا الاكتشاف أو الإختراع يحس من لذة الحياة ما يجعله ينسى جميع المشقات والمصاعب. ومن منا لا يحب مغامرة كولومبية يعيش فيها شهرين أو ثلاثة أشهر فقط وهو يتطلع إلى قارة جديدة ويكاد يهبط عليها بدلا من قضاء مئة سنة وهو منزو فى شارع لا تضيق حدوده الجغرافية فقط بل تضيق فيه ايضاً حدوده الذهنية والنفسية . . ؟

ونحن نعجب بحياة نابليون او غاندى لاقتحامات الأول الحربية واقتحامات الثانى الروحيـــة . ونقرأ سير القديسين والمصلحين والمخترعين فى شوق لأننا نطابق بينها وبين انفسنا فى رغبة حارة للاقتحامات التى امتحنت حياتهم فخرجوا منها اوفر حكمة واعمق فهماً .

ولنا مما قلنـــا مغزيان . المغزى الأول ألا تلتزم الدعة والطمأنينة فنحجم وننقلص ونتراجع امام الأخطار . والمغزى الثانى إلا نبالغ فى شأن الكوارث التى تصادفنا . لأننا ، مادمنا لم نمت فيها ، سنعيش وقد كسبنا اختبارها ومعرفتها اللذين ازددنا بهما فهما وحكمة .

وكتب الأدب العالى تكسبنا من الاختبارات ما لا يحصل

عليه فى مجتمعنا . والشعر العالى هو احسن ما فى الأدب . لأن الشاعر يعرف انه لن يثير فى القارىء حماسة او يلهب فيه ناراً الا اذا ارتفع عن المبتذل المألوف من الاختبارات سواء فى الموضوع ام فى التعبير . فهو يحملنا على اقتحامات ذهنية حتى ولو كانت هذه الإقتحامات مقصورة على التعبير واستخراج المعنى الخفى الفذ من الموضوع الواضح المبتذل .

واسأل ايها القارىء ، أى انسان متقدم فى السن . فانه لابد آسف على تلك الفرص التى عرضت له ولم يغامر فيها بل آثر الدعة والطمأنينة . وهو لا يأسف لأن الفرصة كانت تلوح له من الفرص الكاسبة بل لأنه يحس انه كان يكون أسعد لو انه اختبرها وعاش فيها .

وقد كان المتنبى يقول :

وكل شجاعة فى المرء تغنى ولا مثل الشجاعة فى الحكيم

الشجاعة مع الحكمة تغنى فى النهاية . العاطفة مع الوجدان أى الشراع مع الدفة . العاطفة تدفع والوجدان يوجه .

والخوف من الإقتحامات هو فى صميمه خوف من الحياة أو هو اسف على الخروج من الرحم وحنين الى العودة إليه . والرجل الذى يخاف لا يعيش غير تلك الحياة النباتية البقلية ، يعيش آمناً فى مكانه يخشى ان يتزحزح لئلا يسقط .